ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

العتيق: القديم من كل شيء؛ الكريمُ من كل شيء؛ والخيار من كل شيء (الأقرب).

التفسير: أي أن العمل بأحكام الله تعالى، وتعظيم شعائره، وتعظيم أماكنه المقدسة، وإقامة حرمة آياته، لا ينفع الله شيئًا، بل ينفع الإنسان نفسه، حيث يولّد الخير في قلبه، ويزيده ورعًا وتقوى. خذوا البُدْنَ مثلاً، فإنها تنفع أصحابها أولاً لفترة من الزمن قبل أن تصل إلى الكعبة المشرفة، حيث تُذبح هناك وتوزع لحومها لفائدة البشر أنفسهم، إذ لا تصل إلى الله تعالى لحومها ولا دماؤها، وإنما يصل إلى الله تعالى ذلك الإخلاص الذي كان وراء تقديم هذه الأضاحي. فالشيء المهم هو الإخلاص والإيمان الذي هو في قلب المرء، وهذا هو الشيء ذو القيمة والقدر عند الله تعالى.

لقد بين الله تعالى بقوله ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أن تعظيم شعائره يندرج في تقوى القلب.. أي لا بد للمرء، ليكون تقيًّا، من توقير آيات الله وتعظيمها لأنها تدل على وجوده تعالى. الواقع أن الإسلام يقدم نظرية تقول إن أعمال الإنسان الظاهرة تؤثر على باطنه، كما أن باطنه يؤثر على ظاهره. فالذي يعظم الأماكن التي ظهر فيها جلال الله، أو يحترم الذين نـــزل عليهم كلام الله تعالى أو صاروا مهبطًا لآياته ومعجزاته، إنما يعظمها نتيجة ما في قلبه من تقوى الله وخشيته، لذا فمن الطبيعي أن يؤثر صفاء قلبه على ظاهره، فيتحلى بالحسنات ظاهرًا وباطنًا.

هذه الآية، رغم قصرها، تبين فرائض الإنسان وواجباته أيما بيان، بحيث إن بوسع كل إنسان ذي عقل سليم أن يصحّح كافّة أعماله على ضوء هدي هذه

الآية. إن سعادة المرء وخيره كله إنما هو في تعظيم شعائر الله واحترامها على الدوام، وإلا فإن إيمانه لا يمكن أن يسلم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

البُدْن: جمعُ البَدَنة. والبدنة: ناقة أو بقرة تُنحَر بمكة سُمّيتْ بذلك لأنهم كانوا يسمِّنونها (الأقرب).

شعائر: جمعُ شعـــيرة، والشعيرة: العلامة (الأقرب).

صوافَّ: جمع صافّة، والصافّة من الإبل: الواضعةُ قوائمَها صفًّا (الأقرب).

وجَبتْ: وَجَبَ: سقَط وماتَ. فالمراد من قوله تعالى ﴿فإذا وجبتْ جنوبها﴾ أي أن تلك الأضاحي سقطت على جنوبها بعد النحر وخرجت أنفاسها (الأقرب).

القانع: قنَع الرجلُ: سأَل وتَذلَّلَ (الأقرب).

المُعتَرّ: الفقير؛ المتعرضُ للمعروف من غير أن يسأل (الأقرب).. أي الذي لا يسأل بلسانه بل بلسان حاله.

التفسير: أي أننا قد سنّا القرابين في كل قوم ليذكروا اسم الله على ما أعطاهم من المواشي، وذلك ليؤدوا الشكر لـــه ﷻ، ولو بلسانهم فقط، على هذه المنة العظيمة حيث خلق لهم الطعام والمطايا. أما الشكر الحقيقي فهو أن يقدموا نفوسهم في سبيل الله تعالى قربانًا كما خلق الله لهم هذه البهائم التي يذبحونها قربانًا. فأيها المسلمون، عليكم أن تضحوا لله الأحد وتطيعوه ليقام في الدنيا مُلْكُ رب واحد. فالذين يعيشون أمامنا في تواضع وإنابة، وترتعش قلوبهم بذكرنا، ويصبرون على المصائب، ويؤدون الصلاة جماعة، وينفقون أموالهم على الفقراء، فبشِّرهم، أيها الرسول، أنهم سائرون على طريق سيؤدي بهم إلى العز والشرف في الدنيا والآخرة.

لقد لفت الله تعالى بقوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ النظر إلى أمرين: أولهما أن عادة القرابين موجودة في كل ديانة، وثانيهما أن الله تعالى إنما أمر بتقديم قربان الأنعام فقط ابتغاء مرضاته؛ فالقرابين البشرية التي تقدم في بعض الديانات إنما سببها انحراف الناس عن التعليم الحق، لأن الله تعالى لم يأمرهم إلا بتقديم قرابين الأنعام فقط.

يتضح من دراسة التوراة أيضًا أنه كان هناك رواج للقرابين الإنسانية في القديم، وقد تسربت هذه العادة في بني إسرائيل زمن فسادهم، فأخذوا يضحون بأبنائهم وبناتهم قربانًا إلى أصنامهم. ورد في التوراة عن الملك آحاز أنه: "لم يعمل المستقيمَ في عينَي الربِّ إلهه كداودَ أبيه، بل سار في طريق ملوك بني إسرائيل حتى إنه عبّر ابنَه في النار حسبَ أرجاسِ الأمم الذين طردهم الربُّ من أمام بني إسرائيل." (الملوك الثاني ١٦: ٢-٣)

بل ورد في مكان آخر من التوراة أنه لم يُلقِ في النار ابنًا واحدًا، بل عديدًا من أبنائه حيث ورد: "وأحرق بنيه في النار". (أخبار الأيام الثاني ٢٨: ٣)

كما ورد عن بني إسرائيل أنهم في عهد الملك هُوشَع "عبَدوا العِجلَ، وعبّروا بنيهم وبناتِهم في النار، وعرَفوا عِرافةً، وتفاءلوا." (الملوك الثاني ١٧: ١٦-١٧)

وقد ورد عن مَنَسَّى ابن حَزَقِيّا أنه "بنى مذابحَ لكل جند السماء في دارَي بيتِ الربِّ، وعبّر ابنَه في النار." (الملوك الثاني ٢١: ٥-٦)

علمًا أن هناك بعض الاختلاف بين ما ورد هنا في سفر "الملوك الثاني" وما ورد في سفر "أخبار الأيام الثاني"، حيث جاء في المرجع الأول أن منسّى قدم ابنًا واحدًا كقربان في حين ورد في المرجع الآخر أنه "عبّر بنيه في النار في وادي ابنِ هَنُّومَ." (أخبار الأيام الثاني ٣٣: ٦)

وقد أشار داود عليه السلام إلى هذه السيئة فقال: "وذبحوا بنيهم وبناتِهم للأوثان، وأهرقوا دمًا زكيًّا دمَ بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنامِ كَنْعانَ، وتدنّست الأرضُ بالدماء." (المزامير ١٠٦: ٣٧-٣٨)

وكانت عادة القرابين البشرية شائعة في عصر موسى عليه السلام فجاء النهي الشديد عنها في شريعته حيث ورد: "متى دخلتَ الأرضَ التي يعطيك الرب إلهُك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم. لا يوجدْ فيك مَن يجيز ابنَه أو بنتَه في النار، ولا مَن يعرُف عِرافةً، ولا عائفٌ، ولا متفائلٌ، ولا ساحرٌ، ولا مَن يرقي رُقْيةً، ولا من يسأل جانًّا أو تابعة، ولا من يستشير الموتى، لأن كل من يفعل ذلك مكروهٌ عند الرب." (التثنية ١٨: ٩-١٢)

وورد في مكان آخر: "ولا تُعطِ من زرعك للإجازة لِـــمُولَكَ (مُولَكَ هو اسم إلهٍ للكنعانيين) لئلا تدنّس اسم إلهك." (اللاويين ١٨: ٢١)

وكذلك جاء: "وكلّم الربُّ موسى قائلاً: وتقول لبني إسرائيل: كلُّ إنسان من بني إسرائيل ومن الغرباء النازلين في إسرائيل أَعطَى من زرعه لمُولك فإنه يُقتَل. يرجُمه شعبُ الأرض بالحجارة؛ وأجعَلُ أنا وجهي ضد ذلك الإنسان وأقطَعه من شعبه، لأنه أعطى من زرعه لمولك لكي يُنَجِّس مَقْدِسي ويدنّس اسمي القُدّوس. وإن غمَّض شعبُ الأرض أعينهم عن ذلك الإنسان عندما يعطي من زرعه لمولك فلم يقتلوه فإني أضع وجهي ضد ذلك الإنسان وضد عشيرته، وأقطعه وجميعَ الفاجرين وراءه بالزنى وراء مُولَكَ من شعبهم." (اللاويين ٢٠: ١-٥)

وبرغم أن التوراة تندد بالقرابين البشرية من ناحية، إلا أنها، من ناحية أخرى، تذكر أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه بالسكين. تقول التوراة إن الله تعالى أمر إبراهيم وقال: "خُذْ ابنَك وحيدَك الذي تحبُّه إسحاقَ، واذهبْ إلى أرض المُرِيَّا، وأَصْعِدْه هناك مُحرَقةً على أحد الجبال الذي أقول لك. فبكّر إبراهيم صباحًا، وشدَّ على حماره، وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاقَ ابنَه، وشقّق حطبًا لمحرَقة، وقام وذهب إلى الموضع الذي قال لـــه اللهُ." (التكوين ٢٢: ١-٣)

ثم ورد: "بنى هناك إبراهيمُ المذبحَ، ورتّب الحطبَ، وربَط إسحاقَ ابنَه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مدَّ إبراهيمُ يدَه وأخذ السكين ليذبحه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم، إبراهيم! فقال: هأنذا؟ فقال: لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئًا، لأني الآنَ علمتُ أنك خائفٌ اللهَ، فلم تُمسكْ ابنَك وحيدك عنّي. فرفع إبراهيمُ عينيه ونظَر وإذا كبشٌ وراءه ممسَكًا في الغابة بقرنَيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبشَ، وأصعَدَه مُحرَقة عوضًا عن ابنه."(التكوين ٢٢: ٩-١٣)

فلو صح ما تذكره التوراة بأن الله تعالى أمر إبراهيم أوّلاً أن يذبح ابنه بالسكين، ثم نهاه عن ذلك لما أوشك على ذبحه، لثبت أن الأمر الأول كان بدون جدوى. ذلك لأن الله تعالى إذا كان لا يريد من إبراهيم ذبح ابنه بهذا الطريق فلماذا أمره بذلك أصلاً؟ ثم لماذا قبل منه قربان الكبش فقط؟ فثبت أن ما تذكره التوراة غير مقبول عقلاً ومنطقًا حيث يجعل حُكمًا من أحكام الله تعالى لغوًا.

أما ما يخبرنا القرآن الكريم بهذا الشأن فهو أن إبراهيم عليه السلام رأى في المنام أنه يذبح ابنه (الصافات: ١٠٣). وقد حقق هذه الرؤيا بترك ابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع، وهكذا ذبحه بيده عَمليًّا. وهذا يعني أن التوراة تقدم قصة إبراهيم وكأن قربان الإنسان كان هو الأصل، وأن قربان الحيوان قام مقام القربان البشري. ولكن الإسلام يعتبر قربان الحيوان هو الأصل، موضحًا أن قربان الحيوان كان هو الأصل من الله تعالى في كل ديانة، وأما قربان الإنسان فقد راج في مختلف الأديان عند فسادها خلافًا لمشيئة الله تعالى.

وهنا ينشأ سؤال: إذا كان قربان الإنسان خلافًا للمشيئة الإلهية فلم أرى الله تعالى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه؟ والجواب أن تلك الرؤيا كان لها في الواقع تأويل كشفته الأحداث فيما بعد، وهذا التأويل هو أن إبراهيم سيترك ابنه إسماعيل بأمر الله تعالى يومًا ما في مكان وظروف يكون موته فيها أمرًا مؤكدًا بالنظر إلى ظاهر الأحوال، ولكن الله تعالى سيتقبل تضحيته هذه وسيهيئ لإسماعيل أسباب الحياة، وذلك لكي يتم على يده ثانيةً إعمار ذلك المعبد القديم الذي أراد الله أن يجعله معبده الأخير، ويجعل بيته في مكة هو بيته الأول والأخير كما أنه تعالى بنفسه هو الأول والآخر.

إذًا، فالمسلمون لا يحتفلون بعيد الأضحى إحياءً لذكرى كبش ذبحه إبراهيم عليه السلام، بل إحياءً لذكرى قربان إسماعيل الذي قُدّم ليظل بيتُ الله عامرًا. وأي شك في أن ترك إبراهيم ابنه في واد غير ذي زرع كان بمنـــزلة قتله بيديه، بل كان أكثر من ذلك في الحقيقة؛ ذلك لأن القتل المادي يزهق النفس في لمح البصر، أما في تلك الظروف فلولا فضل الله ورحمته لكان على إسماعيل أن يموت موتًا بطيئًا وهو يقاسي آلامًا شديدة.

فرؤيا إبراهيم عليه السلام لم تكن لترويج القربان البشري، وإنما أراد الله بها أن يعلّمنا أن التضحية الحقيقية إنما هي تحمُّل المشقة والأذى لفائدة الإنسانية. إنما القربان المقبول عند الله تعالى هو ذلك الذي فيه حياة الناس.

وجدير بالذكر هنا أن قول الله تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قد ألقى الضوء على حقيقة القربان وفلسفته بأسلوب رائع لطيف جدًّا، حيث بين الله تعالى أن مجرد القربان ليس بشيء، بل إن مشاعر الإخلاص التي تكون وراء القربان هي التي لها قيمة عند الله تعالى. فلو ذبح المرء كبشًا ضخمًا، بدون أن يبتغي به وجه الله ومرضاته، فلا يساوي قربانه عند الله مثقال ذرة. وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأمر اللطيف باستعمال كلمة ﴿مَنْسَكًا﴾ التي تعني "شِرْعَةُ النَسْك" (أي طريقة القربان)، و"نَفْسُ النَّسك" (أي الذبيحة)، و"موضع تُذبح فيه النسيكة". والنسيكة، وهي الذبيحة في العربية، مشتقة من النسك، يقال نسَك لله: تَطوّعَ بقربةٍ وذبَح لوجهه

(الأقرب).. أي قام بعمل حسن عن طواعية ورضى، بدون أن يؤمر به أو بدون أن يكون هذا العمل من مسؤوليته، وابتغاءً لمرضاة الله تعالى. إذًا، فمن شروط النسيكة أولاً أن تتم برغبة المرء ورضاه وإرادته بدون أي جبر وإكراه، وثانيًا أن تتم لله خالصة. كما يقال: "نسَك الثوبَ أي غسَله بالماء فطهّره".

إذًا، فالله تعالى قد نبهنا بكلمة ﴿مَنْسَكًا﴾ إلى الأمور التالية: الأول عليكم أن تقدموا الذبائح بطيب النفس وبشاشة القلب دائمًا، وليس كأن أحدًا يكرهكم عليها، إذ لا يحظى بالقبول عند الله تعالى إلا القربان الذي يُقدَّم عن رضى وطيب النفس. والثاني أنه لا يكفي بشاشة القلب فقط، بل الخطوة التالية أن تقدموا القرابين لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته. والثالث أن تفحصوا زوايا نفوسكم جيدًا كي لا يكون قربانكم مشوبًا بشيء من أغراض الدنيا، وإلا فلن يحظى بالقبول عند الله تعالى.

لقد علّمنا الله تعالى من خلال هذه الكلمة الوجيزة كل هذه الدروس اللطيفة القيمة التي لو استفاد منها الإنسان لنال من قرابينه نتائج عظيمة.

أما قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فقد بيّن الله فيها أربع علامات للذين يُخبتون ويتواضعون عند الله تعالى، وهي كالآتي:

الأولى: أنه إذا ذُكر الله ترتجف قلوبهم خوفًا.

الثانية: أنهم يتحملون الشدائد والمحن في سبيل الله تعالى بصبر وثبات.

الثالثة: أنهم يقيمون الصلاة.

الرابعة: أنهم ينفقون في سبيل الله تعالى جزءًا من كل ما رزقهم. مع العلم أن قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ لا يعني المال فحسب، فلا يظنّنّ أحد أنه إذا أنفق من ماله في سبيله تعالى فقد أدى واجبه. كلا، بل إن الرزق هنا يشمل عينه وعقله وأذنه وأنفه ويديه ورجليه وكل عضو من كيانه أيضًا. كما يشمل بيتَه، وكلَّ ما يُنبته من المنتوجات الزراعية من حنطة وفجل وجزر وقصب سكر وما إلى ذلك. لا جرم أن المرء إذا أنفق من ماله اعتُبر من الذين يقدّمون التضحية المالية،

ولكن الشرع لا يأمرنا بالتضحية المالية فحسب، بل يوصينا الله تعالى بالإنفاق في سبيله من كل ما أعطانا. فلو تبرع المرء بكل ما يملكه من عقار، ولكن لم تساهم عينه أو يده أو رجله في خدمة عباد الله تعالى، فلا يحق لـــه القول إنه قد أدى واجبه حيث تبرع بكل عقاراته في سبيل الله تعالى.كلا، إن قوله هذا يمكن أن يسمى منطقًا ولكنه لن يسمى دينًا. فلكي يحقق ما يقتضي منه الدين لا مناص لـــه من تسخير كل عضو من كيانه في خدمة عباد الله تعالى. ورد في الحديث أنه حين يُعرَض الناس كلهم على الله تعالى يوم القيامة، يقول لبعضهم: يا عبدي، كنتُ جائعًا فأطعمتني، وكنتُ عاريًا فكسوتني، وكنتُ مريضًا فعُدْتني، فاذهب وادخل جنتي. فيقول العبد مستغربًا: سبحانك ربي، كيف يمكن أن أطعمك أو أسقيك، أو أكسوك أو أعودك في مرضك؛ فإنك بريء من هذه النقائص كلها. فيقول الرب تعالى: صحيح ما تقول، ولكن جاءك عبدي فلان حقير الشأن جائعًا فأطعمتَه، فكأنك أطعمتني، وجاءك عبدي الفلان عطشان، فسقيتَه، فكأنك سقيتني، وحين كسوت عاريًا فكأنك كسوتني، وحين عدت مريضًا فكأنك عدتَني، فتعال وادخل جنتي. (مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض)

إذًا، فقد نبهنا الله تعالى بقوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أن على المؤمن أن يبذل من كل ما آتاه الله من قوى وقدرات لخير الإنسانية، ولا يفرح بأنه قد أنفق ماله أو صلى أو صام.

ذات مرة دعا النبي ﷺ صحابته للإنفاق في سبيل الله تعالى، وجاء أحد فقراء المسلمين بحفنتين من الشعير، فضحك منه المنافقون وقالوا: انظروا إلى هؤلاء الذين يريدون فتح العالم بحفنتين من الشعير!* الحقُّ أنه لو كانت لهؤلاء المنافقين أعين يبصرون بها لعلموا أنهما ليستا حفنتَي شعير، بل هما قطرتا دم سالتا من قلب يفيض

* نص الحديث: "عن ابن مسعود قال: لما أُمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عَقيل بنصف صاعٍ، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعَل هذا الآخر إلا رياءً". (البخاري: كتاب التفسير، قوله تعالى: والذين يلمِزون المطّوعين من المؤمنين ...إلخ) *(المترجم)*

بحب الإسلام، وعُرضتا على محمد رسول الله ﷺ. والحق أن الدنيا إنما تُفتح بقطرات الدم وحدها لا بأسباب مادية. فمن علامات الإيمان الكامل أن تنفقوا في سبيل الله من كل ما تكسبون ومما تأكلون في بيوتكم ومما تلبسون ومما تنفقون، مسخرين كل ما أوتيتم من قوة وطاقة لخير الإنسانية وصالحها.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.. أي أخبرْهم يا محمد أننا قد جعلنا الذبائح من شعائر الله.. أي أنها توصل صاحبها إلى الله، وتؤدي إلى خيره في الدنيا والآخرة. فعليكم أن تذكروا اسم الله في أيام القربان على هذه الذبائح وهي في صفوف لكي تنفع عباد الله تعالى. فإذا سقطت على جنوبها بعد الذبح فكلوا من لحومها وأطعموا الفقير الصابر والفقير المضطر. لقد خولناكم هذه الأموال لتنفقوها على الفقراء شكرًا لله تعالى.

لقد أكد الله تعالى هنا أهمية الذبائح التي تقدم عند حج بيت الله الحرام، حيث بين أن هذه القرابين من شعائر الله وأنه تعالى قد جعل لكم فيها بركة عظيمة. ولكن الذين يجهلون الحقائق، من غير المسلمين وبعض الأغبياء من المسلمين أنفسهم، يطعنون في الإسلام بأنه قد فرض هذه الذبائح التي لا حكمة فيها. لم لا تُنفق هذه الأموال على فتح الكليات مثلاً للنهوض بالقوم. لنفترض أنه يُذبح على الحج كل سنة أربعين ألف كبش، ولو كان معدل ثمن كل كبش ٢٥ روبية لصارت الأموال التي تنفق على ذبح الأكباش عشرة ملايين وخمسة وعشرين مئة ألف روبية.◈ ولو أضفنا إلى هذا المبلغ ثمن الجمال وغيرها من الحيوانات التي تُنحر بهذه المناسبة، لأصبح المبلغ الإجمالي حوالي عشرين مليون◈ روبية. لم لا تُنفق هذه

◈ هكذا ورد في الأصل! *(المترجم)*

الأموال على تعليم العرب، و لم لا تُفتح المدارس والكليات في مكة المكرمة، عوضًا عن أن تضيَّع هذه المبالغ على تقديم الذبائح؟

وأنا أقول دائمًا لهؤلاء المعترضين: أحيانًا يأتي على الشعوب أوقات يضطرون فيها إلى تقديم تضحيات تبدو عديمة الفائدة في بادئ الأمر، قد شرع الإسلام هذه الذبائح تدريبًا للقوم على مثل هذه التضحيات حتى يستمرّوا في تقديمها عند الحاجة، سواء أَفَهِموا الحكمة من ورائها أم لم يفهموها. وعلى سبيل المثال، لو أصدرت دولة يقيم فيها مسلم واحد، حكمًا غاشمًا ضد الدين تريد به محو الإسلام في تلك الأرض، فلا يجوز لهذا المسلم، بحسب تعليم الإسلام، أن يقول لن أضحي بنفسي إذ لا فائدة من تقديم هذه التضحية. كلا، بل عليه أن يقدم نفسه لهذه التضحية بدون تردد، ذلك لأنه ما لم يضحِّ بنفسه فلن يرغب الآخرون أيضًا في التضحية. ولكنه لو قبل الموت شنقًا، لانبرى غيره أيضًا للصعود على منصة الإعدام، ولو أُعدم هذا لتقدم مسلم ثالث لمثل هذا الموت، وهكذا سيتولد الحماس المتزايد لتقديم أرواحهم لحماية الإسلام غير خائفين ولا هيّابين، وسيجبرون الكفر على الهزيمة.

كم بدت التضحيات التي قدمها الصحابة لدى إعلان النبي ﷺ دعواه في مكة المكرمة غيرَ مجدية وبدون أية نتيجة في الظاهر، ولكن هذه التضحيات نفسها هي التي أدت إلى فتح مكة حتى اجتمعت الجزيرة العربية كلها تحت راية الإسلام. عندما كان الصحابة يقدمون هذه التضحيات في مكة ما كان لأحد أن يتصور أنها ستُكسِب النبيَّ ﷺ تلك العظمة الخارقة. حينما كانت المسلمات يُقتلن طعنًا بالرماح في فروجهن، وحينما كان المسلمون يُشَقّون قطعتين بربط رجلَي الواحد منهم بجَمَلين، فلا شك أن من يرى هذا المشهد كان يقول في نفسه إن هؤلاء يزهقون أنفسهم عبثًا. كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه من هؤلاء المسلمين. ذات مرة كان الشاعر العربي الشهير لبيد ينشد أبياتا لـــه في ناد، فقال: "ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ".. أي أن كل ما سوى الله هالك. فلما سمع عثمان بن مظعون قوله هذا قال في حماس شديد: صدقتَ والله، فكل شيء سوى الله فانٍ. وكان عثمان

إذاك شابًا، فلما سمع لبيد قوله هذا سخط سخطًا شديدًا وقال للقوم حوله: إن ولدكم قد أهانني. هل أنا بحاجة إلى ثناء من ولد؟ فقام بعض القوم لضرب عثمان، ولكن هدّأه آخرون قائلين لعثمان: لا تتفوه بعد ذلك بشيء. فاستأنف لبيد إلقاء قصيدته فقال: "وكل نعيم لا محالة زائلُ". فلم يملك عثمان نفسه فقال: كذبتَ والله، فإن نعيم الجنة لا يزول أبدًا. فاشتاط لبيد غضبًا وقال: لن أسمعكم المزيد من شعري. فثار القوم ضد عثمان بن مظعون وأوسعوه ضربًا ولكمًا. ولكَمه أحدهم لكمةً شديدة أخرجتْ حدقةَ عينه. وكان لوالد عثمان صديقٌ، وعاش عثمان من قبل متمتعًا بجوار هذا الرجل، ولكنه لما رأى أن إخوانه المسلمين الآخرين يتعرضون للضرب والإهانة بينما يمشي هو في مكة مرتاح البال، ذهب إلى صديق أبيه وقال لـــه: شكرًا، لا أريد منذ الآن العيش بجوارك. فأعلن الرجل بين القوم أن عثمان لم يعد في ذمته. وكان هذا الرجل موجودًا في هذا النادي، ولكنه لم يستطع الوقوف في وجه الجميع لنصرة عثمان، بيد أنه لما رأى عينه قد فُقئت قال لـــه لائما، شأن الأم الفقيرة التي تصب جام غضبها على ولدها هي إذا ضربه ولد لأمٍّ ثَريّة: ألم أقل لك أن لا تخرج من جواري؟ هل رأيت عاقبة ذلك؟ فقال لـــه عثمان بن مظعون: يا عم، إنك تلومني على ضياع عيني! والله إن عيني الصحيحة لتتوق لأن تُفقأ في سبيل الله تعالى. (الإصابة في معرفة الصحابة: عثمان بن مظعون، والسيرة النبوية لابن هشام: قصة عثمان بن مظعون، والسيرة الحلبية الجزء الأول ص ٣٤٨)

فهل يمكن لعاقل أن يظن عندها أن ضياع عين عثمان يمكن أن ينفع الدين شيئًا؟ الحق أن تلك التضحيات كانت تبدو حينها عديمة الجدوى تمامًا، ولكن لو لم تُفقأ عين لعثمان في سبيل الله تعالى، ولو لم تضطرب عينه الأخرى لتُفقأ في هذا السبيل، ولو لم تُطعَن المسلمات في فروجهن بالرماح، ولو لم تُزهق أرواح بريئة في أوائل الإسلام في مكة، لما استطاع المسلمون تقديم التضحيات فيما بعد في وقعة بدر ولا في أُحد ولا في الأحزاب. إن تلك التضحيات الأولى هي التي خلقت فيهم حماسًا وزادتهم إخلاصًا ورفعتهم إلى مستوى عال من التضحية.

وهكذا رغم أن آلاف الخراف تُذبح في مكة، وتذهب لحومها سدى إذ لا يكون هناك من يأكلها، إلا أن الإسلام يأمرنا بتقديم تلك الذبائح مؤكدًا أن لنا فيها خيرًا وبركة حيث قال الله تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.. أي عليكم أن تستمروا في تقديم هذه الأضاحي دائمًا بدون انقطاع آخذين في الحسبان نتائجها البعيدة المدى. ولا تكونوا كذلك الملك الأحمق الذي أصدر قرارًا بتسريح جيوشه إلى بيوتهم زعمًا منه أن الإنفاق على الجيش تبذير وإسراف لا جدوى منه، فإن الجزارين في دولته قادرون على أداء هذه المهمة إذا اقتضى الأمر. فكان مآله أنه فقد دولته كلها.

ونجد في حياة النبي ﷺ أيضًا حادثًا قد أعطى الله فيه المسلمين الدرس نفسه، إذ تُقدَّم أحيانًا تضحية تبدو عديمة الجدوى في الظاهر، إلا أن القوم يشتركون فيها ويقدمونها. فعندما عقد النبي ﷺ معاهدة الصلح مع المشركين عند الحديبية استولى على الصحابة اضطراب شديد لدرجة أن رجلاً كعمر أيضًا أصيب بهلع كبير، فذهب إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله، أما وعدك الله بأننا سنحج؟ قال ﷺ: بلى، ولكن متى قال الله تعالى إننا سنحج هذه السنة. وعليه فقد جاء صلح الحديبية صدمة عظيمة للصحابة، حتى إن النبي ﷺ لما أمرهم بذبح الأضاحي في الحديبية نفسها أصيبوا بالذهول وقالوا يجب ذبح الأضاحي في مكة أو بعد الحج أو العمرة، لماذا نؤمر بذبحها هنا؟ إننا لم نصل إلى مكة، ولم نطف بالكعبة، ولم نعتمر ولم نحج، فعلامَ نضحي؟ ولما وجد النبي ﷺ أصحابه مترددين في ذبح الأضاحي دخل خيمته وقال لزوجته: لقد أمرتُ قومكِ اليوم بشيء فلم يستجيبوا لي! قالت: يا رسول الله، إنهم لم يفعلوا ذلك لقلة حبهم لك، بل لأن الصدمة صعقتهم ففقدوا صوابهم. فاخرُجْ وانحَرْ بُدْنَك دون أن تكلِّم أحدًا منهم بكلمة، وسترى ماذا سيحدث بعد ذلك. فخرج النبي ﷺ واتجه إلى بُدْنه. وما إن نحرها حتى أسرع الصحابة إلى ذبائحهم وأخذوا يذبحونها كالمجانين (البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد). فترى أن هذه الذبائح لم تكن ذات مغزى في الظاهر، إذ لم يدخل الصحابة مكة، ولم يطوفوا بالكعبة، ولم يقوموا بالحج ولا العمرة، ومع ذلك قدموا الذبائح. لماذا؟

ذلك لأن الله تعالى أراد أن يعلّم المسلمين أن الكافرين إذا كانوا قد صدّوكم عن بيت الله فاذبحوا الأضاحي حيث صدّوكم، موقنين أن ذلك المكان هو بيت الله تعالى.

قصارى القول إن هذه التضحية أيضًا كانت عديمة الجدوى في الظاهر، ومع ذلك أمر النبي ﷺ أصحابه بتقديمها، مبينًا لهم أن عليهم أن لا يترددوا في القيام بأي تضحية مهما بدت لهم عديمة الجدوى في ظاهرها. إنما واجبهم أن يقتحموا غمار التضحيات بلا تردد. إن الله تعالى قد جعلهم من جنود دينه وإن هزيمة الكفر والشيطان مقدرة على أيديهم. إنما خُلقوا من أجل العمل، فعليهم أن ينفذوا كل ما يأمرهم به قائدهم، وأن يتبعوه حيثما ذهب بهم. هذه الروح هي التي سينالون بها الخير والبركة، ولن تقدر معها أمة من الأمم على الوقوف في وجههم.

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧

التفسير: أي اعلموا أنه ليست الحكمة من وراء هذه القرابين أن تصل لحومها أو دماؤها إلى الله تعالى، إنما الحكمة فيها أنها تولّد في الإنسان التقوى، وتلك التقوى هي التي يحبها الله تعالى.

يعترض البعض ويقول هل الله تعالى متعطش للدماء ومغرم باللحوم كالآلهة الهندوسية، حتى يأمر بذبح هذه الحيوانات ويتقبلها كقرابين بلهفة وشوق، ويبشر الذين يقدمون هذه القرابين الحيوانية بالجنة؟

لقد رد الله تعالى في هذه الآية على هؤلاء الطاعنين، وقال: ليست الحكمة في تقديم هذه الأضاحي أن لحومها أو دماءها تصل إلى الله تعالى، وإنما الحكمة فيها أنها

تتسبب في نشوء التقوى في قلب الإنسان، وتلك التقوى هي ما يحبه الله تعالى. فالذين يفرحون بذبح الخرفان والإبل والبقر ظانين أنهم قد وصلوا بذلك إلى الله تعالى، فهم مخطئون، إذ قد صرح الله تعالى هنا أن هذه القرابين الظاهرية ليست بشيء. تذبحون الأنعام بأيديكم، وتأكلون اللحوم بأنفسكم، فما لها ولله؟ إن هذه الذبائح إنما هي تعبير عن حقيقة بلغة تصويرية تكمن وراءه حكمة عميقة. فالرسام مثلاً يرسم الصور، ولكن هدفه ليس رسم الصور فقط، بل يحاول بها إيصال بعض المعاني العظيمة إلى القوم. فتارة يرسم السلسلة، ويرمز بها إلى الوحدة القومية، وحينًا يرسم منظر طلوع الشمس، ويقصد بها رقي القوم. وبالمثل فإن القرابين الظاهرة هي الأخرى من قبيل لغة الرسم والتصوير، ومضمونها أن الذي يذبح هذا الحيوان هو جاهز ومستعد لأن يضحي بنفسه أيضًا. إذًا، فالذي يقدم القربان يقر بأنه سيضحي في سبيل الله تعالى بنفسه ونفيسه. والخطوة التالية هي أن يصدّق المرء بعمله ما قد أقرّ به بلغة التصوير، لأن مجرد التقليد الخالي من الحقيقة لا يُكسِب صاحبَه أي عزة ولا شرف. لِمَ لا يحترم الشرفاءُ هؤلاء الذين يقومون بأدوارهم التمثيلية في الأفلام وغيرها يا تُرى؟ ذلك لأنه لا حقيقة لملوك يظهرون في التمثيليات والأفلام. أما الملوك الحقيقيون فيلقون التكريم والاحترام من الجميع. إن الذي يقوم بدور الملك في تمثيلية لو اجتهد في حياته العملية أيضًا للوصول إلى هذا المنصب فلن يلام على ذلك، ولكن التقليد الفارغ لا يؤدي إلى الشرف والعزة. وبالمثل، فإن الذي يقدم نفسه قربانا مع قربان كبشه سيلقى الاحترام عند الشرفاء، ولكن الذي يرى الكفاية في تقديم قربان الكبش فليس إلا مقلد فارغ ومهرج هازل لا يستحق احترامًا ولا تكريمًا.

ثم إننا لو تعمقنا في الأمر لوجدنا أن عملية ذبح الذبيحة تترك أثرًا بالغًا وعميقًا في نفوس الذين يرونها وهي تُذبح – ما عدا الجزارين الذين يذبحون الأنعام يوميًّا – وتحدث في أفكارهم ثورة، الأمر الذي حدا ببعض الطوائف إلى اعتبار الأضاحي ظلمًا عظيمًا. لا جرم أن قولهم هذا يدل على ضعف طبائعهم، إلا أنه مما لا شك فيه أن لذبح الذبيحة وقعًا كبيرًا في نفس الإنسان، ولخلق هذا التأثير قد جعل الله

تقديم الذبائح في العبادات. وكأن كل إنسان يقرّ من خلال أضحيته أنه إذا اقتضى الأمر فسوف يضحي بنفسه عن طيب خاطر لمن هو أعلى وأسمى منه كما فعل هذا الحيوان الذي هو أدنى منه ومع ذلك ضحّى بنفسه من أجله. فانظرْ كم سيكون التأثير عظيمًا على من ضحى بأضحيته مع إدراكه لهذه الحقيقة الكامنة في القرابين، وكم سيتذكر مسؤوليته التي فرضها عليه خالقه. ستظل ذكرى هذه الأضحية حية في قلبه على الدوام، ولا يزال قلبه يذكّره بأنك قد أقررت حين ذبحت الكبش بيدك بأن الشيء الأدنى يضحَّى به من أجل الشيء الأعلى والأسمى، فعليك أن تكون جاهزًا لهذه التضحية توطيدًا للحق أو دفعًا لمعاناة الإنسانية. هذا هو المعنى الذي أكده الله تعالى هنا حيث بين أنه لن ينال الله لحوم أضاحيكم ولا دماؤها، وإنما تناله تلك النية الطيبة التي ذبحتم بها الأضحية خشيةً لله تعالى.. أي أنكم ستنتفعون من أضاحيكم إذا حققتم هذا الغرض الذي ضحيتم من أجله، وإلا فإنكم إنما أرقتم الدماء وأكلتم اللحوم فحسب، فلا جدوى من ذلك في الحقيقة.

لقد ثبت بهذه الآية أيضًا أن الإسلام يعلن أن الشكل الظاهري للعمل لا يأتي بالنتيجة، وإنما روح وجوهر التضحية التي تعمل وراءه هي التي تأتي بالنتيجة. فالاختلاف الحاصل أحيانًا في الشكل الظاهري للعمل بسبب اختلاف الظروف لا يحول دون رقي أحد، بل يحكم الله تعالى عند النتائج وفقًا لإخلاص المرء في عمله. فمثلاً، هناك شخص يملك عشرة آلاف روبية، فينفق مئة روبية على الفقراء، وهناك شخص آخر عنده عشرة روبيات فقط، فينفق منها خمس روبيات في سبيل الله تعالى، فلن تكون النتيجة بمجرد النظر إلى الروبيات الخمس أو المـــئة روبية، بل سيرى الله تعالى عند الجزاء إلى شدة حاجة كل منهما إلى المال، وكم ضحى كل واحد منهما رغم حاجاته، أو سينظر الله إلى ما دفعهما إلى الصدقة، وأي الحافزَين أفضل وأسمى. وما دام الثواب يترتب بحسب هذا المبدأ، فلن يُنقص من ثواب أحد منهما رغم الاختلاف الظاهري؛ وبالمثل لن ينفع المرءَ مجرد تقديم قربان من الأنعام، وإنما ينال اللـــهَ الإخلاصُ الذي يكون وراء قربانه، والحبُ الإلهي الذي يحفزه على تقديم هذا القربان. إن نصف الروبية التي ينفقها الإنسان التقي أفضل عند الله من

مئة روبية ينفقها شخص خال من التقوى. ذلك لأن المبدأ الذي بينه القرآن الكريم هو أن الله تعالى لا ينظر إلى الدماء ولا إلى اللحوم، بل ينظر إلى نية صاحب القربان. إن الشخص الثري يستطيع أن يضحي بكل سهولة بمئة من الإبل أو الخرفان في سبيل الله تعالى، ولكن الفقير الذي لا يبرح طوال السنة يوفر قرشًا قرشًا لتقديم الأضحية، والذي يقضي كل يوم في حسرة أن يجتمع عنده من المال ما يستطيع به تقديم الأضحية ولو مرة في يوم العيد، ليوزع بعض لحمها في سبيل الله تعالى، ويُقدم بعضه هدية لأصدقائه، أقول لو أن هذا الأخير ضحى برأسٍ عادي من الماعز أو الخروف بعد أن جد وكدح طوال السنة، فهل تظن أن الله تعالى لن يقبل من الفقير ماعزه العادي أو خروفه الصغير، وسيتقبل من الثري خرافه السمينة؟ لو أن الله تعالى حكم بمجرد النظر إلى ظاهر أعمال البشر لقبل الخرفان السمينة من الثري ورفض رأس الماعز البسيط أو الخروف الصغير من الفقير، ولكنه تعالى لن يحكم وفق أعمال البشر الظاهرية، بل يعلن ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾.. أي لا ينال الله لحوم الأضاحي ولا دماؤها، وإنما يناله ما يختلج في قلوبكم من عواطف ومشاعر، بمعنى أنه تعالى يحكم بحسب هذه المشاعر. لو وصلته تعالى اللحوم أو الدماء لاختار منها أفضلها، ولتقبَّلَ تلك الأضاحي التي أُريق منها دم أكثر، ولكنه تعالى يعلن أنه لا يصلـــه من هذه الأضاحي شيء، وإنما تصلـــه النية التي تكون وراء القربان. فإذا ذبح شخص خروفًا صغيرًا ولكن بنية صافية وعالية جدًّا، وذبح غيره مئتي خروف ولكن لم تكن نيته سامية ولا إخلاصه عاليًا، فستتحول مئتا خروف له يوم القيامة إلى خروف ضعيف هزيل، أما الذي ضحى بخروف صغير بإخلاص وحب كبيرين فلن يكون معه يوم القيامة خروف صغير، بل آلاف من الخراف السمينة؛ لأن جميع الأشياء في ذلك العالم ستكون بحسب النيات.

هذه هي حقيقة الأضاحي من المنظور الروحاني. أما من المنظور المادي فلو أمعنتَ النظر لوجدت أن لكل شيء خلقه الله تعالى في الدنيا قشرًا ولُبًّا. ليس ثمة لبّ بدون قشر، ولا قشر بدون لبّ. وهذا هو حال الأعمال الروحانية أيضًا. فمثلاً إن القيام والقعود والركوع والسجود في الصلاة عبارة عن قشور، والتأثير الروحاني

الذي يتولد من هذه الحركات هو اللب والجوهر. وفي القرابين أيضًا يكون لب وقشر، فذبح الحيوان هو بمثابة القشر، والإخلاصُ الذي يكون وراء الذبح هو اللب، ولذلك قال الله تعالى ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾.

ورب قائل يقول: إذا كانت التقوى هي الغاية في تقديم القربان فما الداعي لذبح هذه الحيوانات؟ والجواب على ذلك كالآتي:

أولاً: ما سبق بيانه بأن لكل لب قشرًا. وثانيًا: إن قشر القربان، أي ذبح الحيوان، ليس بدون فائدة، بل إنه ينفع الفقراء. فالفقراء يظلون محرومين عادة من الطعام المغذّي لأجسامهم، ففرض الله على الناس نوعًا من الصدقة تُقدَّم فيها قرابين الحيوانات لكيلا تعاني قلوب الفقراء من الحسرة الدائمة ولا يظلوا محرومين نتيجة ضيقهم المادي من هذا الغذاء الضروري. ومن أجل ذلك يقول الله هنا إننا قد وهبناكم هذه الأنعام لتذكروا اسم الله عليها كما أمركم، وتقوموا برعاية المساكين، واعلموا أن الذين يعملون بأحكام الله تعالى ينالون جوائز كبيرة.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

التفسير: أي على المؤمنين أن لا يخافوا لأن الله تعالى نفسه سيحارب أعداءهم نيابةً عنهم، ويفشل كيدهم. عليهم أن يتذكروا أن الله تعالى لا يحب الخائنين ولا الذين يتنكرون لنعمه التي أنعم بها عليهم.. أي الذين لا ينفقون أموالهم على الفقراء. إنما يحب الله تعالى من ينفقون من النعم الإلهية على الآخرين بشتى الطرق كإمدادهم بلحوم الأضاحي والكسوة وما إلى ذلك.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ
رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ
وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ
وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن
مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ
إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ
لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ
وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ
بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى
ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

صوامعُ: جمعُ صَومَعة وهي: كل بناء متصمِّعُ الرأس أي متلاصِقُه (المفردات). والصومعة: منار الراهب (الأقرب).

بِيَعٌ: جمعُ بيعةٍ، وهي: معبد النصارى. (الأقرب)

صلواتٌ: جمع صلاة وهي كنيسة اليهود (الأقرب)

مَكَّنَّا: مكّنه من الشيء: جعَل لـــه عليه سلطانًا وقدرة (الأقرب).

نكير: النكير الإنكار (الأقرب)

معطَّلة: عطَّل البئرَ: ترَك وِرْدَها؛ وكلُّ ما تُرك ضائعًا فقد عُطِّلَ (الأقرب)

مَشيد: المشيد هو ما طُليَ بالشِّيد؛ وقيل هو المرفوع المطوَّل (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى في هذه الآيات تلك المبادئ التي تبيح للمسلمين الخوض في الحرب الدفاعية في ظروف معينة. إن الإسلام لا يقول لنا كالمسيحية "مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحوِّلْ لـــه الآخر أيضًا" (متى ٥: ٣٩)، بل يأمر أنه إذا هاجمَكم قومٌ فأخرجوكم من دياركم، من دون أي جريمة سوى قولكم: ربنا الله، فعليكم بالتصدي لهم، ولا تظنوا أنكم قليلون، لأنكم إذا كنتم مظلومين فلا بد أن يأتي الله لنصرتكم، وإنه لقادر على ذلك تمامًا. واعلموا أنما نأمركم بذلك توطيدًا للأمن والسلام في العالم، ولو لم نأمر قومًا بذلك من أجل نشر العدل والإنصاف لهُدّمت كنائس النصارى ومعابد اليهود وكذلك مساجد المسلمين التي يُذكر فيها اسم الله كثيرًا. فالمسلم الذي يهبّ ضد الحرب التي هدفها القضاء على الحرية الدينية، فإنه لا ينصر نفسه في الحقيقة، بل ينصر هذه الطوائف، ولا يدافع عن دينه فحسب، بل يدافع عن الأديان كلها؛ فلا بد أن ينصره الله تعالى. وبما أن الله تعالى قوي وعزيز، فمن المحتم أن يصبح هذا المسلم قويًّا وغالبًا، لأنه إنما يقف في وجه هذا العدوان بنية أنه إذا نال القوة فإنه سيقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وهذه الأمور كلها موافقة للمشيئة الإلهية؛ وبما أن الله تعالى هو الذي يأتي بالنتائج فلا بد أن يكون النصر حليفًا لمن يتبع مشيئة الله تعالى.

ثم قال الله تعالى يجب ألا ينتابكم الخوف من المعارضة الشديدة، فإنها مستمرة منذ زمن نوح وعاد وإبراهيم، بيد أن الغلبة كانت للحق دائمًا، ولا تزال آثار دمار أعداء هؤلاء الرسل ماثلة أمامكم في العالم. فانظروا إلى هذه الآيات وانتفعوا منها، لأن القلوب هي التي تتمكن من رؤية الحق وليست العيون.

لقد تبين من هذه الآيات، التي تجيز للمسلمين الخوض في الحرب، أن الإسلام إنما يأذن بالحرب لقوم يظلون عرضة للاضطهاد لمدة طويلة على يد قوم ظالمين يمنعونهم من أن يقولوا ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾.. أي أنهم يتدخلون في دين الآخرين ويكرهونهم على ترك الإسلام قهرًا أو يصدّونهم بالقوة عن اعتناقه ويقتلونهم بجريمة اعتناقهم إياه. إذًا، فلا يجوز الجهاد ضد أي قوم سوى هؤلاء. أما إذا نشأت حرب ما فلا تكون إلا حربًا سياسية أو وطنية، ومثل هذه الحرب يمكن أن تنشب بين طائفتين من المسلمين أيضًا، ولكنها لا يمكن أن تسمى جهادًا، كما لن يكون الاشتراك فيها لزامًا على كل مسلم، وإنما يكون فرضًا على المسلمين الذين يعيشون تحت ظل تلك الدولة المحاربة؛ لأنها تسمى "حربا وطنية"، وليست حربًا دينية؛ ويقول الرسول ﷺ: "حُبُّ الوطن من الإيمان".

ثم بين الله تعالى أنه من واجب هؤلاء المظلومين أنهم إذا نالوا القوة فعليهم بحماية كل الديانات، والحفاظ على حرمة أماكنها المقدسة، ولا يجعلوا غلبتهم سببًا لزيادة قوتهم ونفوذهم، بل عليهم أن يبذلوا قوتهم في رعاية الفقراء والنهوض بالبلاد والقضاء على الشر والفتنة؛ ذلك لأن الإسلام إنما جاء في الدنيا شاهدًا ومحافظًا لا ظالمًا جبارًا.

إذًا، فالذين يطعنون في الجهاد الإسلامي عليهم أن يفكروا هل بإمكان المسلمين بعد هذا التعليم أن يشنّوا الحرب متى شاؤوا ويجعلوا الكفار أسرى؟ إن مثل هذه الحرب لا يمكن أن يبدأها إلا عدوهم؛ فإذا شن العدو حربًا كهذه، رغم قدرته على تجنبها، وسعى لتغيير دين الآخرين جبرًا وقهرًا، فلا يعني ذلك إلا أحد الأمرين: فإما أنه مصاب بالجنون، أو أنه يستحق العقاب؛ إذ كان بوسعه أن لا يشنّ الهجوم

ظلما وعدوانًا، وكان بإمكانه أن لا يظلم أحدًا، وكان بوسعه أن لا يثير للدين حربًا، وبالتالي يحفظ نفسه من الهلاك والدمار.

قد يعترض هنا أحد فيقول: كيف يصحّ قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مع أنه تعالى قد صرح ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾.. فما دام العباد أنفسهم قاتلوا الكفار دفاعا عن أنفسهم فكيف يقال إن الله تعالى هو الذي قد تولى الدفاع عنهم؟

لقد أجاب الله ﷻ على ذلك بقوله ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.. أي أنه برغم أن المؤمنين خاضوا الحرب إلا أنهم يدركون، كما يدرك غيرهم، أنهم ضعفاء ولا يمكن أن يتغلبوا على أعدائهم، إنما تكون الحرب في الحقيقة من قبل الله تعالى. وإن المؤمنين مجرد سلاح يستعمله الله تعالى. وهو الذي يكتب لهم الفتح، ويعطيهم الغلبة، ليكون دليلاً على أن الله تعالى هو الذي حارب وليس العباد.

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر في الآية التالية أيضًا حيث قال ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾.. أي أن الله تعالى يؤيد الذين يهبّون لنصرة دينه. وهذا يعني أن الله تعالى هو الذي يتولى الدفاع الحقيقي رغم خوض المؤمنين الحرب.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ
لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥١﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

أمليتُ: أملاه: أمهَلَه (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن أعداء الحق يطالبون دائمًا بنـــزول العذاب بدون تأخير، وعلى المؤمنين أن لا ينخدعوا بخدعتهم هذه، لأن يومًا عند ربهم يساوي ألف سنة، وإنه ينـــزل العذاب على مهل. فلينظروا إلى الذين خلوا من قبل، فإنهم هم الآخرون كذبوا بالحق، ولكنهم لم يدمَّروا على الفور، بيد أن العذاب حل بهم في الأخير فكانوا من الهالكين.

واعلم أن الله تعالى قد أشار بقوله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ إلى أمرين: أولهما شدة العذاب، حيث أخبرهم الله تعالى أنهم يطالبون بالعذاب، ولكن إذا حل العذاب ستبدو لهم ساعة واحدة من العذاب كألف سنة، ولن يجدوا منه مناصًا. وثانيهما أن الله تعالى قد أشار بذلك إلى تلك الفترة التي سيرفع فيها الكفر رأسه ثانية والتي ستمتد إلى ألف سنة. فقال الله تعالى للكفار ألا يستعجلوا بالعذاب لأنه تعالى يريد أن يعطيهم مهلة ألف سنة ليرى كيف يعملون؛ وعند انقضاء مهلة ألف سنة سيلقون عقابًا شديدًا على سوء أعمالهم يكون عبرة للآخرين وسيُطوَى به بساط الكفر للأبد.

وقد أكد الله تعالى هلاك الكفر هذا في سورة طه أيضًا حيث قال تعالى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۞ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا﴾(الآيتان: ١٠٣و١٠٤). فقوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ إشارة إلى أن الشرك سيكون منتشرًا في ذلك العصر بين الشعوب ذوي العيون الزرقاء أي بين الشعوب الأوروبية والأمريكية انتشارًا عامًا، وأن سيطرتهم على العالم لن تدوم إلا عشرة قرون. وبالفعل قد بدأ رقيُ هؤلاء في القرن الثالث الهجري وبدأ

انحطاطهم بعد انقضاء عشرة قرون تمامًا في القرن الرابع عشر الهجري. إذ الثابت تاريخيًّا أن هذه الشعوب المسيحية قد شرعت ترفع رؤوسها في سنة ٢٧١ الهجرية، التي قد أشير إليها في مستهل سورة الرعد في مقطع ﴿المر﴾. ولو أضفنا عشرة قرون من رقيهم في ٢٧١ صار عندنا عام ١٢٧١ الهجري. ولكي نعرف السنة الميلادية المطابقة عام ١٢٧١ الهجري علينا أن نضيف إليها فترة ٦٧١ عامًا – وهي المدة التي ما بين بداية التقويم الميلادي حتى هجرة رسولنا الكريم ﷺ – فيصير المجموع عندنا ١٨٩٢. وعلينا أن نطرح سنتين أو ثلاثًا من هذا المجموع لأن سورة الرعد مكية حيث نـــزلت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث، وهكذا يصير عندنا عام ١٨٩٠ أو ١٨٨٩. و١٨٨٩ هو العام الذي بدأ فيه حضرة المسيح الموعود عليه السلام أخذ البيعة من الناس، فوُضع بذلك الأساس لهلاك المسيحية. وبالفعل ترى أنه لما انتهت هذه المدة وجاء زمن هلاك المسيحيين فإن الحكومة البريطانية، التي كانت أكبر دولة مسيحية في العالم في ذلك العصر، لاذت بالفرار من الهند بحيث لم يبق لها أثر فيها، برغم أن الهند كانت تُدعى جوهرةً في تاج الإمبراطورية البريطانية.

لقد كان هؤلاء مغرورين بقوتهم. لقد ظنوا في أول أمرهم أنه لن يصيبهم الدمار أبدًا كما أشار الله تعالى إلى ذلك في سورة الكهف في قوله ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾(الآية:٣٧).. أي أن القوة القيادية لهم ستقول: لسنا جاهزين أبدًا أن نقبل أن ساعة هلاكنا آتية. ولكن حين يأتي العذاب وتنكسر قوتهم كلية سينكشف عليهم أن زمن رقيهم لم يكن إلا ألف سنة، إذ ليس لهم بعد ذلك سوى الدمار.

ثم إن الله تعالى قد سمى هذه القرون العشرة يومًا أيضًا حيث قال ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾(طه:١٠٥).. أي أننا أعلمُ بما سيقول هؤلاء عند هلاكهم حين يعترف من هو أكثرهم اتباعًا لدينه ويقول لقومه: لو تدبرتم الحقيقة لوجدتم أنكم لم تمكثوا إلا مدة معينة.. أي عشرة قرون كما تقول النبوءة.

وكما يقول الله تعالى في سورة سبأ أيضًا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لاَ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ﴾(الآية:٣٠-

٣١).. أي يقول المعارضون متى سيتحقق وعد انتشار الإسلام في العالم كله إن كنتم صادقين؟ فقُلْ لهم: قد حُدد لكم ميعاد يوم لن تتأخروا عنه ولن تتقدموه. ولفظ ﴿يَومٍ﴾ الوارد هنا أيضًا يعني مدة ألف سنة حيث صرح الله تعالى في سورة السجدة ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الآية:٦).. أي أن الله تعالى سيُنـــزل الإسلام من السماء إلى الأرض ويقيمه فيها بتدبيره، ثم يرتفع إليه في يوم يساوي ألف سنة بحسب عددكم، ولكنه تعالى سيهيئ بعد ذلك الأسباب لغلبة الإسلام ثانية ويُهلك الكفرَ.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا العذاب الموعود في سورة مريم فقال ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾(الآية:٧٦).. أي قُلْ لهم إن الذين يتيهون في ضلالهم يمهلهم الله الرحمن إلى مدة معينة، حتى إذا ظهر لهم ما وُعدوا به أي العذاب في الدنيا أو الدمار القومي التام، عندها سيعلمون من هو أسوأ مكانًا وأضعف صديقًا، بمعنى أنه لن تحميهم من الدمار حضارتهم التي يتباهون بها ولا أصدقاؤهم وزملاؤهم وأنصارهم. ستُنـــزع منهم ثروتهم، كما سيتخلى عنهم أصدقاؤهم، فيصيبهم الهلاك والدمار.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٣

شرح الكلمات:

تَمَنَّى: تمنَّى الشيءَ: أرادَه. وتمنَّى الكتابَ: قرأَه. والأُمْنِيّة: البُغْيَة؛ ما يُتمنَّى ويُقدَّر (الأقرب).

ينسَخ: نسَخ الشيءَ نسخًا: أزاله، تقول: نسَختُ حُكْمَه بحكم فلان: أي أزلتُه به (الأقرب).

التفسير: هذه الآية أسهل آية في القرآن الكريم، ولكن المفسرين قد جعلوها خطيرة جدًّا. وبيان ذلك أنهم يربطونها بآيات من سورة النجم، ثم بناء على إشكالات خيالية يجعلون من هذه الآية سلاحًا خطيرًا جدًّا ضد الإسلام، مع أنه لا يوجد بين سورة الحج وسورة النجم أي علاقة على الإطلاق.

يقول المفسرون أن النبي ﷺ جاء مرة إلى فناء الكعبة، فاجتمع حوله الكافرون، فأخذ ﷺ يقرأ عليهم قول الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾. ثم قرأ ﷺ – والعياذ بالله – "تلك الغَرانيقُ العُلى وإنّ شفاعتَهنّ لَتُرتَجى".. أي أنها الآلهة طويلة الأعناق ونأمل في شفاعتهن. ثم لما بلغ النبي ﷺ قول الله تعالى في نهاية السورة ﴿فَاسْجُدُوا لله وَاعْبُدُوا﴾ سجد، فسجد معه الصحابة والكافرون أيضًا، حتى إن الوليد بن المغيرة أيضًا – وكان عدوًّا لدودًا للإسلام – أخذ بضع حصوات ومسح بها جبينه متظاهرًا بأنه هو الآخر قد اشترك في السجود. وهذا الخبر أثار ضجة كبيرة في مكة، وأخذ الناس يقولون إن مكة كلها قد دخلت في الإسلام لأن الكافرين كلهم سجدوا مع المسلمين.

ومما يقول المفسرون: لأن جملة "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتَهن لتُرتجى" التي قرأها النبي ﷺ – والعياذ بالله – لم تكن من وحي القرآن، فنسخها الله تعالى فيما بعد، ولذلك لا نجدها في المصحف. (القرطبي وفتح البيان)

وتدليلاً على صحة زعمهم يقدم المفسرون قول الله تعالى في سورة الحج ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.. أي لم نرسل قبلك يا محمد من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ وحيه دسّ الشيطان في وحيه شيئًا من عنده، ويمحو الله تعالى فيما بعد ما يلقي الشيطان في وحيه تعالى. وهذا ما حصل مع النبي ﷺ، فلما قرأ سورة النجم في بيت الله الحرام دسّ الشيطان فيها من عنده: "تلك الغرانيق العُلا وإنّ شفاعتهم لَتُرتجى." وبسماع هذه الكلمات من

لسان النبي ﷺ ظن كفار مكة أنه قد بدل من دينه شيئًا، فاشتركوا معه في السجود. فلما شاع بين أهل مكة أن الكافرين قد دخلوا في الإسلام، قال الكافرون إنما سجدنا مع محمد لأنه قال في وحيه "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لتُرتجى"، وهكذا صدّق آلهتنا صراحة. ويقول المفسرون أنه ما دام من الثابت في الحديث أنه قد سُمع عندها صوت يقول "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لتُرتجى"، لذا فإن هذه الآية إنما تعني أنه ما من نبي إلا ويُجري الشيطان على لسانه في بعض الأحيان كلمات خلاف مشيئة الله تعالى. (القرطبي، وفتح البيان)

ولكن هذه الآية لا تذكر أبدًا أن الشيطان أجرى بعض الكلمات على لسان النبي ﷺ، وإنما تعني فقط أن كل نبي حين يتمنى شيئًا – وطبعًا ليست أمنية أي نبي إلا إصلاح الناس – يلقي الشيطان في طريقه العراقيل لأنه لا يريد نجاحه. فمن معاني الإلقاء أيضًا وضعُ الشيء في مكان وطرحُه فيه؛ وعليه فقوله تعالى ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إنما يعني أن الشيطان يضع شيئًا في طريق النبي. ومن الواضح أن الشيطان إنما يلقي العوائق في طريق النبي، ولا ينصره أبدًا.

إذًا، فمن الظلم العظيم أن يفسروا هذه الآية بأن الشيطان يلقي كلمات الشرك على لسان الأنبياء.

ولكن المشكلة التي نواجهها هي أن الرواية المذكورة أعلاه قد قَبِلَ كبار المحدثين بصحتها. فمثلا يقول المحدث الكبير ابن حجر: "إن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح" (فتح البيان*).. أي أن هذه الرواية مروية من قبل عدة رواة ثقات، وأن ثلاثة من هذه الأسانيد تبلغ مستوى صحيح البخاري ثقة. كما أن البزاز والطبراني قد اعتبرا هذه الرواية صحيحة (همیان الزاد، تفسير سورة الحج). إذن، فكيف نستطيع أن نرفض هذه الرواية كلية؟

بيد أن الله تعالى قد فهّمني بفضل منه حل هذه المعضلة، وهو كالآتي:

---

* هكذا ورد في "فتح البيان"، ولكنا لم نعثر على هذا القول في كتاب لابن حجر. *(المترجم)*

لما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة شق ذلك على أهل مكة، فبعثوا وفدًا إلى النجاشي ملكِ الحبشة لاسترجاع المسلمين المهاجرين (السيرة الحلبية، الجزء الأول: باب الهجرة الثانية إلى الحبشة).

وورد في التاريخ أن بعضًا من هؤلاء المهاجرين رجعوا من الحبشة إلى مكة عند حادث سجود الكفار. فسألهم من قابلهم من سكان مكة: لماذا رجعتم؟ قالوا لقد بلغَنا أن أهل مكة قد أسلموا (ابن خلدون الجزء الثاني ص ١٠). فقيل لهم إنهم لم يسلموا أبدًا، بل كل ما في الأمر أن رسولكم قد قرأ عليهم آيات من القرآن تدعم الشرك فسجدوا معه، ولكن رسولكم لما نسخ تلك الآيات فيما بعد عاد المكيون إلى دينهم ثانية. فرجع هؤلاء إلى الحبشة ثانية.

ولكن الفترة الزمنية بين حادث تلاوة سورة النجم وعودة هؤلاء المهاجرين من الحبشة قريبة لدرجة أن الواقع الجغرافي يرفضهما. فكان أقرب ميناء من مكة في ذلك الزمن، واسمه شعيبة، يقع على مسافة يقطعها الراكب في خمسة أيام أو أربعة على الأقل، حيث ورد: "مسافتها طويلة جدًّا" (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية الجزء الأول ص٢٧٠). أما المسافة بين شعيبة وميناء الحبشة فتستغرق أربعة أيام أو خمسة أيضًا؛ إذ لم تكن وسيلة سفر الناس في البحر حينئذ إلا السفن الشراعية، التي كانت لا تجري في كل وقت، إذ لم تكن هناك شركات بحرية في ذلك الزمن، بل كلما وجد أحد الملاحين الفرصة أبحر، وكانت رحلته هذه تستغرق شهورًا في بعض الأحيان. ثم إن المسافة من ميناء الحبشة إلى عاصمتها كانت تستغرق حوالي شهرين. وهذا يعني أن المدة الإجمالية التي يمكن أن يصل فيها خبرُ سجودِ الكفار من مكة إلى عاصمة الحبشة، وسماحِ الملكِ للمسلمين بالعودة، ثم وصولهم إلى مكة، تصبح ما بين شهرين ونصف وثلاثة أشهر. في حين نجد الروايات تقول إن المسلمين المهاجرين رجعوا بعد حادث سجود الكافرين خلال ١٥ أو ٢٠ يومًا، حيث خرجوا إلى الحبشة في شهر رجب، ومكثوا هنالك حتى شعبان ورمضان، ورجعوا في شوال (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية الجزء الأول ص ٢٧٠، و٢٨٢).

وهكذا تصبح المدة الإجمالية لمكوثهم في الحبشة ووصولهم إلى مكة أقل من ثلاثة أشهر أيضًا (السيرة الحلبية الجزء الأول ص ٣٦٤)

لقد تبين من ذلك كله – وبكل وضوح – أن حادث سجود الكفار لدى تلاوة سورة النجم كان مكيدة مخططة من قبل الكافرين.. أعني أن بعض زعماء الكافرين كانوا قد قاموا بنسج خطة سلفًا، وبعثوا بعضهم إلى الحبشة ليشيع بين المسلمين المهاجرين هناك أن أهل مكة قد أصبحوا مسلمين، وأنهم قد سجدوا مع محمد رسول الله ﷺ. فلما اقترب موعد وصول المسلمين القادمين من الحبشة إلى مكة قالوا فيما بينهم ماذا سنجيبهم إذا ما رأوا أن أهل مكة لا يزالون كافرين. فأشاعوا بين القوم أنهم إنما سجدوا مع محمد لأنه قرأ – معاذ الله – خلال تلاوته للقرآن آيات تدعو إلى الشرك، ولكنه لما قام بنسخ هذه الآيات من القرآن رجعوا إلى كفرهم ثانية – والحق أن النبي ﷺ لم ينسخ أية آية كهذه، وإنما أعلن أنه لم يقرأ على الكفار آيات الشرك مطلقًا – وما كانت هذه الخطة لتنجح إلا إذا قُرئت بالفعل آيات كهذه في المجلس. ويبدو أن كافرًا خبيثًا – وليس محمدًا رسول الله ﷺ – قرأ هذه الجمل بحسب ما أمره رؤساء الكافرين خلال تلاوته ﷺ في المجلس. ولما كان الجمع كبيرًا يبلغ المئات ويضم جميع رؤساء الكافرين، فلم يعرف القوم من جراء الضجيج والصخب صاحب الصوت الذي قرأ هذه الجمل، بينما أشاع الكافرون أن محمدًا هو الذي ردد هذه الجمل، ولذلك سجدنا معه. فبما أن الذين كانوا على أطراف المجلس سمعوا هذه الجمل من هذا الكافر الماكر الذي رددها بصوت عال خلال تلاوة النبي ﷺ، فظنوا أيضًا أن محمدًا هو الذي قرأ هذه الجمل.

إذًا، فإن الحل الوحيد لهذا اللغز هو أن أحد الكافرين الخبثاء ردد هذه الجمل بصوت عال خلال تلاوة النبي ﷺ بحسب مخطط مدروس سلفًا، والدليل على وجود هذه الخطة المنسوجة سلفًا هو وصول المهاجرين من الحبشة إلى مكة قبل المدة التي كان وصولهم فيها ممكنًا بعد سماع حادث سورة النجم، بل إنهم قد وصلوا إلى مكة قبل المدة التي يمكن أن تستغرقها رحلة جوية لو كانت في ذلك الوقت أية طائرات. فوصولهم قبل الموعد يدل على أنهم كانوا قد أُبلغوا قبل الموعد

أن أهل مكة قد أسلموا، وأنه في الأيام التي كان مجيئهم فيها متوقعًا بحسب المخطط قد تكلم أحد من الخبثاء بهذه الكلمات في المجلس.

ثم إننا لو تركنا جانبًا تلك الأحاديث التي تعارض القرآن الكريم صراحة، لوجدنا أن سورة النجم نفسها تبطل هذه القصة تمامًا. ذلك لأن الله تعالى يقول، قبل تلك الآيات التي يقال أن الشيطان دسّ فيها كلمات تدعو إلى الشرك: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نـــزلَةً أُخْرَى﴾(الآية:١٤).. أي أن محمدًا رسول الله ﷺ قد رأى ربه، بل رآه مرة ثانية. كما يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(الآية:١٩). وبعد ذلك يقول الله تعالى للكفار ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ (الآيتان: ٢٠و٢١).. أي هل رأيتم من أصنامكم آية مثل التي رآها محمد من ربه؟ أي أنكم لم تروا منها أي آية، ولكن محمدًا ﷺ قد رأى من ربه ﷻ آيات كبرى.

هذا ما ورد في سورة النجم قبل "الجملة المزعومة الشيطانية الوثنية". أما بعدها فيقول الله تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْـــزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.. أي أنكم بأنفسكم قد سميتم هذه التماثيل بهذه الأسماء، و لم ينـــزل الله تعالى على ذلك أي برهان.

فبالله عليك، هل من المعقول أن تكون "هذه الجملة الشيطانية الوثنية المزعومة" مسبوقة بآية تبطل الشرك، وتليها أيضًا آيةٌ تردّ على الوثنية، ومع ذلك يُزعَم أن الشيطان قد أجرى ما بينهما كلمات وثنية على لسان محمد رسول الله ﷺ؟ إن المفسرين قد وصفوا الشيطان عادة بالذكاء الشديد حتى اعتبروه أستاذًا للملائكة، وذلك خلال تفسيرهم لآيات من سورة البقرة، وعرضوه على العالم وكأنه قد هزم الله ﷻ في حواره معه (القرطبي). ومع ذلك، فما بال الشيطان في هذه القصة، فهو يبدو فيها كالحمار، إذ لم يجد لإلقاء هذه الجملة الوثنية مكانًا إلا بين هذه الآيات التي تدعو إلى التوحيد بكل قوة وشدة. إن هذا الشيطان يجب أن يُزَجّ في دار المجانين، إذ لا يستطيع هذا الغبي البليد إغواء خلق الله تعالى؟

ثم إنه لمن العجب العجاب أن سورة النجم تنتهي بقول الله تعالى ﴿فَاسْجُدُوا لله وَاعْبُدُوا﴾. وأي أحمق كان يمكنه، بعد سماع قول الله هذا، أن يزعم أن محمدًا

رسول الله ﷺ نطق بكلمة وثنية؟ قصارى القول إن كل آية من آيات سورة النجم تفند هذه القصة كلية.

هذه شهادة داخلية، أما الشهادة الخارجية فهي أنه من المستحيل أن يرجع المهاجرون من الحبشة إلى مكة بعد سماع هذا الخبر في المدة التي رجعوا فيها، كما أثبتُّ من قبل.

وأتناول الآن تفسير هذه الآية من سورة الحج التي يحتجون بها على صحة هذه القصة، لأبين أنها لا تعني أبدًا ما ذهب إليه المفسرون. لقد فسروها بأن جميع الأنبياء والرسل الذين خلوا من قبلك، يا محمد، قد دسّ الشيطان شيئًا من عنده في وحيهم كلما قاموا بتلاوته، ولكن الله تعالى ينسخ ما يخلطه الشيطان في وحيهم، وهكذا يحكم الله آياته. (القرطبي)

والحق أن هذا المعنى لا يصح على الإطلاق. فأولاً، إن لفظ التمنّي لا يعني القراءة فحسب، بل يعني الإرادة أيضًا، وليس المراد من الأُمنية التلاوة فقط، بل تعني المراد والغاية أيضًا (انظر أقرب الموارد). وعليه فإن هذه الآية تعني أنه: "لم يُبعَث قبلك من نبي ولا رسول إلا إذا أراد شيئًا ألقى الشيطان في إرادته؛ فيزيل الله ما يلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته". هذا المفهوم يكشف أن التفسير الذي يقدمه المفسرون لا ينطبق هنا، إنما تعني هذه الآية أنه لم يأت نبي ولا رسول إلا حاول الشيطان عرقلة طريقة ليفشله في هدفه وغايته، ولكن مهما سعى الشيطان لإعاقة طريق الأنبياء إلا أن الله تعالى يزيل كل عائق من طريقهم، ويهيئ الأسباب لتحقيق آياته التي أنبأ بها لنجاحهم؛ وهكذا ينتصر النبي وينهزم الشيطان.

وبالنظر إلى وقائع التاريخ أيضًا يمكن للقارئ أن يعرف ما إذا كانت الأحداث والوقائع تؤيد ما يذكره المفسرون أم تؤيد المفهوم الذي نقدمه نحن. فبناء على ما يذكره المفسرون كان على محمد رسول الله ﷺ، أن ينهزم ويتغلب الشرك، ولكن ما حدث على صعيد الواقع هو أنه ﷺ كسر بيده الأصنام الموضوعة في الكعبة فانمحى الشرك للأبد.

فثبت أنه لم يأت نبي ولا رسول حتى اليوم إلا عرقل الشيطان كل هدف وغاية ورغبة وأمنية لـــه. إنه يدرك أنه لو نجح النبي فلا مكان لـــه، لذا فيبذل هو وذريته كل ما أوتي من قوة ضد الأنبياء وجماعاتهم شأن الشخص الذي قد أحاط به الموت من كل مكان فيسعى للنجاة من براثن الموت بكل ما أوتي من قوة. ويعلم الذين تصادف أن رأوا شخصًا في سكرات الموت أنه برغم كونه مغشيًّا عليه وغافلاً عن الدنيا وما فيها وفاقدًا كل قواه، إلا أنه يبذل قصارى جهده وكأنه يريد أن يعود إلى الدنيا، فيصاب كيانه بهزة، ويرتفع عنقه ويستجمع كل طاقته. هذه حالة شخص مغشيّ عليه قد فقد كل قواه وقد جفّ اللحم على جسده، فما بالك بشخص لا يكون مغشيًا عليه و لم يفقد كل طاقته؟ أو إذا دفعتَ – مثلاً – ولدًا صغيرًا إلى حافة البئر لتخوِّفه فإنه سيلتصق بك وتتولد فيه طاقة تزيد على طاقته العادية عشرات المرات. أو هناك شخص يلقيه مصارع على الأرض في لمح البصر، ولكن المصارع لو حاول إلقاءه في البئر لرأيت أنه لن يقدر على إلقائه فيها في ساعة دَعْك أن يصرعه في دقيقة؛ ذلك لأنه يرى أن المصارعة مباراة فحسب، ولا بأس لو صُرع بيد الخصم، ولكنه إذا أدرك أن الموت وشيك استنـــزف كل طاقته وبذل كل جهده حتى أصبح ندًّا لخصمه أو قريبًا من ذلك.

عندما تقام جماعة من عند الله في الدنيا تثور الأرواح الشريرة ذوات الصلة بالشيطان أو التي قد استولى عليها الشيطان جراء ذنوبها، فتبذل كل ما في وسعها للحيلولة دون انتشار الخير في العالم. وهؤلاء الذين يقفون ضد الجماعات الإلهية يكون بعضهم ضمن نظام الجماعات ومنتمين إليها انتماء شكليًّا مثل عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وبعضهم ينتمون إليها بالاسم ولكن لا يكونون ضمن نظامها مثل الخوارج في عهد سيدنا علي ﷺ، وبعضهم لا ينتمون إليها من حيث الاسم ولا النظام مثل كفار مكة واليهود والنصارى. فهؤلاء كلهم يسعون معًا ليكونوا سدًّا عائقًا في طريق الأهداف التي يُبعث أنبياء الله تعالى لتحقيقها في العالم، فيضعون في سبيلهم كل نوع من العوائق والعراقيل، ولكن الله تعالى يؤيد رسله بآياته، ويُفشل الشيطانَ في كل مكائده. الواقع أن كلب الشرطة إذا ما شمّ رائحة ثياب اللص

وتُرك وراءه فإنه يبطش به لو طارده عشرة أو عشرين بل مئة ميل، كذلك فإن الشيطان يكون عدوًّا لرائحة القداسة والطهر، فإذا وجدها في شخص صال عليه بشراسة ليفترسه افتراسًا. فلما مُسح آدم عليه السلام بيد الله تعالى بعطر الطهر والقداسة طارده الشيطان. ولما أُعطي نوح عليه السلام هذا الشذى تتبَّعه أيضًا. ثم لما جاء إبراهيم عليه السلام وانتشرت هذه الرائحة بواسطته، صال عليه الشيطان. ثم جرى وراء رام تشندر وكرشنا وزرادشت وعيسى وسيدنا محمد المصطفى ﷺ. فلولا أن هؤلاء جميعًا أُعطوا عطرًا مماثلاً لما صال عليهم الشيطان بصولات مماثلة. لقد هجم عليهم الشيطان في عصورهم هجمات مماثلة لأنهم كانوا قد مُسحوا بعطر واحد هو عطر التوحيد. ولكن ما يحصل هو ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.. أي أن الله تعالى يزيل كل العوائق التي يضعها الشيطان ويثبّت التعليم الذي يأتي من عنده تعالى، وهو سبحانه ذو علم وحكمة عظيمين.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

فتنةً: الفتنةُ: الخِبرةُ والابتلاء؛ الضلالُ والإثمُ والكفرُ؛ الفضيحةُ؛ العذابُ؛ العِبرةُ (الأقرب).

شقاق: شاقَّه وشِقاقًا: خالَفه وعاداه، وحقيقته أن يأتي كلٌّ واحد منهما في شِقٍّ غيرِ شَقِّ صاحبه (الأقرب).

تُخبت: الإخباتُ: اللِّين والتواضع (المفردات).

مِرْية: المرية: الشكّ؛ الجَدَل (الأقرب).

يومٍ عقيمٍ: الذي لا خير فيه (الأقرب). وفي "المفردات": يوم عقيم: لا فرحَ فيه.

التفسير: يردّ الله تعالى على سؤال يطرح نفسه هنا وهو: لماذا يسمح الله للشيطان بإعاقة طريق الأنبياء. يقول تعالى إننا نسمح للشيطان بهذه الممارسات لتتطهر نتيجةَ فتنه جماعاتُ الأنبياء من أهل النفاق والخيانة وتنكشف عداوة الأعداء على الناس. فعندما يضع الشيطان العراقيل يستجيب لـــه الذين في قلوبهم شر وقسوة، فيضطهدون المؤمنين، فينكشف للناس ضعف الضعفاء في الإيمان وعداوة الأعداء، ويعرف الناس مدى عناد أعداء الإسلام ومعارضتهم؛ كما يعلمون أن المؤمنين الصادقين في إسلامهم لا يخافون شر أهل الشر، بل يزدادون إيمانًا مع إيمانهم، وهكذا يزيد الله المؤمنين هدى.

لقد بين الله تعالى في هذه الآية قاعدة بأنه كلما جاء نبي وقدم مشروعًا لإصلاح الناس، أخذ الشيطان في عرقلة طريقه؛ فينفصل أهل النفاق وضعفاء الإيمان عن جماعة المؤمنين، وهكذا يزيد الله جماعته قوة وعظمة.

إن التدبر في هذا المعنى يكشف لنا أن الله تعالى يؤكد حماية كل الأنبياء عمومًا، وحماية محمد رسول الله ﷺ خاصة، من أي تصرف للشيطان، بل إنه تعالى يبين أن الشيطان يلقى الخزي والمذلة على أيدي الأنبياء، بدلاً من أن يكون لـــه أي سلطان عليهم.

كما أننا لو أخذنا في الحسبان قول الله تعالى للشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(الإسراء:٦٦).. أي لن يكون لك غلبة على عبادي، ثبت جليًّا أن المعنى الذي أذكره هو الصحيح وأن ما يذكره المفسرون هو خطأ. ذلك أن تصرف الشيطان في لسان نبي، وخاصة عند تلاوته الوحيَ، لسلطانٌ ما بعده من سلطان.

فإننا نرى في الدنيا أن بعض الناس لا يزالون يرفعون الهتافات ضد الحكومة مهما تعرضوا للاضطهاد على يدها، فكيف يصح إذًا القول أن المصطفى ﷺ، وهو سيد الأنبياء والرسل، لم يَقْوَ – والعياذ بالله – على الصمود أمام الشيطان فتصرّف في لسانه وجعله يتكلم بكلمات وثنية. إن هذا الزعم لنقضٌ صارخ للآية المذكورة أعلاه من سورة بني إسرائيل، ومن المحال أن تعارض آيةٌ من القرآن الكريم آيةً أخرى. يقول الله تعالى ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٣). ويظن البعض خطأً أن كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ هنا تعني أنه يوجد في كلام الناس اختلاف كثير، أما كلام الله فيوجد فيه الاختلاف ولكنه ليس كثيرًا. ولكن الواقع أن كلمة الكثير تعني الفضل والعظمة أيضًا حيث ورد في "المفردات": "وليست الكثرة إشارةً إلى العدد فقط بل إلى الفضل".. أي أن لفظ الكثير الذي ورد في القرآن لا يعني كثرة العدد فقط، بل يأتي أحيانًا لبيان الفضل والعظمة. فالقول بأن الله تعالى يعلن في القرآن، من جهة، إنه ليس للشيطان سلطان على عبادي، ويقول من جهة أخرى أن الشيطان قد أُعطي سلطانا على كل نبي ورسول حتى إنه يدسّ في وحيهم شيئًا من عنده، إن هذا لاختلافٌ ما بعده اختلاف. إذًا، فهذه الآية من سورة النساء أيضًا تؤكد أن ما قاله المفسرون خطأ وباطل ومخالف تمامًا لصريح القرآن.

هذا، وهناك تفسير آخر لقول الله تعالى ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ وإليك بيانه. بحسب علم المنطق لا يجوز استخراج قضية مخالفة للقضية الحملية، والقضية المخالفة هذه تسمى أيضًا مفهوم المخالفة. فلو قلنا مثلاً: "فلان صغير الرأس" فلا يجوز لنا أن نستنتج من ذلك أنه صغير القدمين أيضًا. وبالمثل إن دعوى القرآن ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ جملة شرطية، وهي تعني في حالة القضية الحملية أن كلام غير الله يوجد فيه اختلاف كثير، ولكن هذا لا يعني ألبتة وجود اختلاف في كلام الله ولو بقدر قليل جدًّا، لأن هذه النتيجة مفهوم مخالف لا يجوز استنتاجه بحسب علم المنطق، كما قد وضحتُ بالمثال.

ثم يقول الله تعالى هنا في سورة الحج ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.. أي ما كان الكافرون ليتركوا الشك فيما نـــزل إليهم من الحق إلى أن تأتي ساعة هلاكهم فجأة أو يأتيهم عذاب لا يُبقي ولا يذر.

فمن ذا الذي كان يوقن حتى هجرة النبي ﷺ بأن تلك الحفنة من فقراء المسلمين في مكة سيسيطرون في فترة وجيزة على الجزيرة العربية كلها، ولكن هذا ما حدث بالفعل. فبعد الهجرة فورًا، أي في السنة الثانية، فإن رؤساء مكة الذين كانوا مصممين على القضاء على الإسلام والذين عرّضوا المسلمين الفقراء لصنوف الاضطهاد، قد قُتلوا في معركة بدر كما تُقتل الكلاب المسعورة في شوارع القرى. وعندما جاء الطوفان في زمن نوح عليه السلام، استمرّ قومه يسخرون منه حتى آخر لحظة قبل مجيء الطوفان قائلين: إذا جاء الطوفان وغرقنا فأين ستجد أنت الملاذ إذًا؟ ولكن بعد استهزاء استمر عدة سنوات – وقد بالغت التوراة كالشعراء في بيان هذه الفترة وقالت إنها امتدت إلى مئات السنين – فاجأهم الطوفان، فأُغرق الذين سخروا منه، واستوت سفينته على الجبل. كما يتضح من القرآن الكريم والتوراة كليهما أنه عند هروب موسى عليه السلام من مصر لم يدرك قومُه حتى آخر لحظة أن وقت نجاتهم قد حان. لقد قال فرعون أيضًا إن هؤلاء لشرذمة قليلون، فأنى لهم أن يفلتوا من أيدينا؟ ولما رأى قوم موسى فرعونَ وجنوده قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء:٦٢)، ولكن هؤلاء القوم الذين كانوا يظنون قبل نصف ساعة أن انفلاتهم من يد فرعون مستحيل رأوه قد وصل مع وزرائه وجنوده الذين كان يتباهى بهم إلى قعر البحر. (الخروج ١٢: ٣٧ إلى آخره، والخروج ١٤: ١٥)

والحق أن عظمة هذه المعجزة تتضاعف حين نرى أن فرعون كان من الملوك الذين كانوا يسترون وجوههم بالنقاب كلما ظهروا للناس، وكانوا قد أشاعوا بين

القوم أن الذي يرى وجه الملك يصاب بالجذام. كانوا يعتبرون نظر الناس إلى وجوههم إهانة لهم، فكانوا يضعون النقاب على وجوههم ليخبروا الناس أنهم أعظم من أن ينظر إليهم كل من هبّ ودبّ. فكان كل من كشف له الملك النقاب عن وجهه يصير من المقربين لـــه، ويصبح رئيسًا لقومه. أما اليوم فقد أصبحت جثة فرعون مومياء موضوعة في متحف القاهرة، وقد رأيتها بأم عيني في عام ١٩٢٤م. ولكن بأية مشاعر ينظر المرء إلى موميائه؟ بطبيعة الحال إنه لا ينظر إليه بمشاعر طيبة، بل كل من يراه يلعنه ويقول: أيها الخبيث، أنت الذي كنت تؤذي موسى عليه السلام؟

مجمل القول، إن العذاب من عند الله تعالى يأتي في بعض الأحيان بغتة لدرجة أنه يحيط بالمرء وهو ينظر إليه فيحوّله رمادًا في لمح البصر. هذا ما يبين الله تعالى في هذه الآية فيقول: سيظل هؤلاء في شك من أمر محمد رسول الله ﷺ حتى تفاجئهم ساعة هلاكهم، فلن يجدوا منها مصرفًا، أو يحل بهم عذاب يمحو كل أثر لعظمتهم. وقد كانت ساعة فتح مكة أيضًا من الساعات التي أتت على الكافرين بغتة، فقضت على كبريائهم قضاء مبرمًا، فصار أولئك الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه منذ فجر الإسلام ضعفاء وعاجزين لدرجة أنهم أخذوا يتوسلون إليه ﷺ بكل تواضع أن يرحمهم ويعاملهم كما عامل يوسف إخوته (السيرة الحلبية: فتح مكة، الجزء الثالث ص ١١٣). وقد حدث انقلاب عظيم لدرجة أن أولئك الذين كانوا حتى الأمس يتعطشون لدم النبي ﷺ يفدونه بمُهجهم وأرواحهم.

أما ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ فالمراد منه عذاب يوم بدر عند ابن عباس ومجاهد وقتادة.. يومَ قُطع دابر الكَفار، وكُسرت شوكتهم وعظمتهم (القرطبي).